المدينة في رواية" سيدة المقام" لواسيني الأعرج

أ – طويل سعاد

قسم الأدب العربي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة محمد خيضر بسكرة

إن تجربة واسيني الأعرج الإبداعية تجربة ثرية بتنوعها الحكائي وفنياتها السردية و كذلك مستوياتها اللغوية.

والنص المراد دراسته لايقل شأنا عن كل نتاجه السردي، فـ" سيدة المقام " تضاف إلى تجربة الأعرج الروائية الهامة، و تحيل من حيث بنيتها النصية إلى بدايات الأزمة الوطنية، وهي المرجع الذي بنى عليه الروائي أرضية عمله.

يعد العمل من أولى الروايات الجزائرية التي تعرضت لبدايات الأزمة إثر مظاهرات أكتوبر 1988، وهي من الحجم المتوسط تقع في مئتين وأربع وثمانين صفحة في الطبعة الجزائرية، يؤطرها أحد عشر فصلا على النحو الآتي :

1–مكاشفة المكان، 2– ظلال المدينة، 3– فتنة البربرية، 4– حنين الطفولة، 5– محنة الاغتصاب، 6– الجمعة الحزين، 7– الجنون العظيم، 8– البحر المنسي، 9– حراس النوايا، 10– إغفاءات الموت، 11– نهاية المطاف.

ومنذ بداية الرواية إلى نهايتها يرثي صاحبها مدينة الجزائر العاصمة رغبة منه في قول شيء عن هذا البلد، ذلك ما قاله لناشر لبناني حين رفض نشر الرواية خوفا من قتله.

و شعور الأعرج بالمأساة تجاه العاصمة جعله يخلدها بهذا العمل، فهي إذن، ولدت من رحم معاناة الكاتب الذي لا يمتلك إزاء كل ما يحصل لبلده في ظل الصراع على الملك والسلطة بين " بني كلبون "

و" حراس النوايا" كما ينعتهم سوى الكتابة لوعي منه أن الأديب حينما يفقد وطنا يكتب روايته، ذلك أن الكتابة انتصار للضياع وتثبيت وخلود للتاريخ والذاكرة.

فما الذي حصل لمدينة الجزائر يا ترى ؟ وما الذي أراد الكاتب تقديمه عبر وحدة فضاء المدينة ومركزيته ؟

المدينة إذن، هي الجزائر العاصمة، وهي الفضاء الروائي الذي تبرز فيه الأماكن الرئيسية المرتبطة بالأحداث التي تدور حول قصة حب بين السارد (الأستاذ) وراقصة الباليه (مريم)، والحكاية في الأصل منتهية، يقدمها السارد على شكل استرجاع وربما لا تتعدى ساعات من موت مريم في المستشفى يليها انتحار الأستاذ من أعلى الجسر.

يعلن السارد منذ الفصل الأول من بنية السرد الروائي عن انكسار المدينة، في محاولة لرصد التحولات التي أصابتها بعد قدوم حراس النوايا، ويواصل عرض مأساتها بتفاصيل دقيقة ماضيا بها قدما إلى قمة الانهيار والضياع بسبب التصارع على السلطة، لتتضح الصورة المراد تقديمها جليا منذ البداية. فالكاتب يريد عبر عنوان الفصل الأول والثاني إظهار التحول الكبير للمدينة بدءا بيوم الجمعة، وهو يوم الحادث الذي أصيبت فيه مريم أثناء المظاهرات.

إن الفاجعة التي أصابت المدينة أصابته بالذهول ماجعل الملفوظ الروائي يغرق في الحزن ومناجاة النفس بل يصل إلى الهذيان أحيانا يقول : " شيء ما تكسر في هذه المدينة بعد أن سقط من علو شاهق. لست أدري من كان يعبر الآخر: أنا أم الشارع في ليل هذه الجمعة الحزين. الأصوات التي تملأ الذاكرة والقلب صارت لا تعد، ولم أعد أملك الطاقة لمعرفتها. كل شيء اختلط مثل العجينة " [1]، يضيف " الأشجار انحنت ويبست في هذه الساحة الواسعة بلا أي معنى، مثلها مثل المدينة التي لم تعد مدينة "[2].

هي ذي شخصية البطل التائهة تعكس حالة الالتباس في فهم مايجري، ترى المدينة في اليوم المشهود فضاء من الإحباط والانكسار، و تظهر النص منذ البداية نصا متأزما ومحتقنا نفسيا. و تبدو فيه رؤية الأبطال للمدينة صورة سوداوية ضبابية، وكل لفظ قدمه يحمل دلالات عميقة، حول المدينة إلى رمز لكل معنى قبيح فهي: (قاتلة، خائنة، سارقة، مجنونة، باردة، جافة، وحيدة، حزينة، ذابلة، كئيبة...)، وعند تقديم المدينة لا يتم ذلك كما تراها العين المجردة، بل تقدم في ظل منظور نفسي يحكم الشخصيات، وفي ظل إطار فني يخدم الرواية كذلك.

كما يحاول منذ الوهلة الأولى الكشف عن مكان وقوع أحداث الرواية، وربطها بيوم الجمعة المقدسة، اليوم الأفضل بين كل أيام الأسبوع في الخطاب الديني. لكنه يصبح هنا اليوم الأسوء عند الأبطال، فهي جمعة حزينة بائسة بل وملعونة أيضا.

نستطيع الوقوف منذ الفصل الأول– وهو بداية بؤرة التأزم السارد – على الدلالة التي أراد الكاتب تحميلها للمدينة باعتبارها الخلفية المكانية التي ينطلق منها النص، وفي ذلك تأكيد على العدائية القائمة منذ البداية مع المدينة، وإن كانت الرواية كلها قائمة على صورة المدينة إذ لم يخل فصل من ذكرها إلا أن تواترها يبلغ مداه في الفصل الثاني الموسوم بـ (ظلال المدينة)، حيث يركز السارد على وصفها مقارنا بين ماضيها وحاضرها المتردي، فمنذ أحداث أكتوبر 1988 بدأت تتغير " وكل شيء فيها بدأ يفقد معناه، الشوارع، السيارات، البنايات، حتى الوجوه التي تعودنا على وضاءتها صارت متسخة، الأشواق التي تحتل قلب المدينة، لم تعد تحفل كثيرا بالفرح "[3]. أصبحت الطرقات والشوارع خالية من المارة الذين صاروا يخشون النزول إلى المدينة بعدما بدأت تخسر سحرها و بريقها شيئا فشيئا، لقد صارت منهكة،غارقة في صمتها الرهيب، "منذ أن جاء حراس النوايا بدأت المدينة تلوح بنصب مشانقها وتسن السكاكين والسيوف، وتحشو أسلحتها بالبارود..." [4].

قدوم حراس النوايا الجدد غير وجه المدينة، حتى أضحى حضور الموت بشوارعها أمرا مألوفا، مثلها مثل المدينة حزينة منطوية على ذاتها، فارغة، غارقة في صمتها لا سيما ليلا.

يذكر السارد الأحياء والشوارع التي تدور فيها الأحداث (شارع عبان رمضان، شارع محمد الخامس...)، ذكرا عابرا لا يكتسب وصفه الأهمية الكبيرة كباقي الأماكن في المدينة ضمن البنية السردية، في حين يقتصر الكاتب في الغالب على الإشارات الخاطفة والمقتضبة كنوع من الروايات الذهنية [5]، كونها تعتمد في جزء كبير منها على التذكر والهذيان والمونولوج الداخلي، وكل ذلك يدخل ضمن عناصر تكون مكملة للفكرة الرئيسة في الرواية والمتمثلة في تغير المدينة، وهذا التغير يسقط على كل جزء من أجزائها.

حتى الشوارع كالعباد غيرت أصالتها وهويتها، ولبست حلة غير حلتها، ضاعت ملامحها وسط الألبسة المستوردة من كل بقاع الدنيا، وأصبح شارع مدينة الجزائر العاصمة "كأنه لم يعرف أبدا ألبسته الخاصة الفولار البربري، العباية الوهرانية، الملاية القسنطينية، الحايك التلمساني، الذي لايظهر إلا سحر العيون، والفوقية والبلغة، يالطيف ! شارعنا الريح اللي تجي تديه " [6]، كل الشوارع ضيعت ألوانها الأصلية وذاكرتها وصارت باردة مزيفة.

إن الشرخ والانفصال بين المكان (المدينة) والأبطال، هو ما يؤرق السارد بصفة أكبر ويجعله في صورة تقابل وتنافر، هذا التنافر يجسد الواقع الذي أصبحت عليه المدينة.يقول

الراوي متسائلا عن التغير الكبير :"ماذا حدث لهذه المدينة ؟؟ وجهها تغير وامتلأ بالندوب وعادت الأمراض الفتاكة إلى الوجوه بعدما نسيناها " [7].

هذا المقطع وغيره من المقاطع في الرواية تكشف لنا مدى حيرة ودهشة الأستاذ نتيجة التحولات السريعة والمتتالية، التي تشهدها المدينة يوما بعد يوم، من قتل وتخريب وكبت للحريات، حتى أننا نقرأ العبثية والشعور بالخيبة في حديثه، تجسدها حالة الانهيار النفسي المستمرة، لدرجة أنه أراد الفرار بذاته من المدينة بعدما أضناه الألم وأرقه الحزن والبحث عن مدينة بديلة، لا يهم ما تكون ؟ المهم أن يسكنها ويرتاح فيها، لا تسكنه بجراحها وأحزانها، لكن إلى أين ؟ وكل المدائن ذاتها يغيب عنها الحب والأمن والحرية تخبره بذلك مريم : " في روما يقتلون، في باريس يكشرون، في لندن يطردون، في مدريد يرجعونك من المطار، ماذا بقي أمامك ؟ أن تخبئ رأسك في رمال وطنك الواسع أو تموت "[8]، الإنسان لا يجد نفسه إلا في مدينته ولو موتا لأن في موته حياة له.

تزداد مأساة السارد وشعوره بالخيبة واليأس والحزن والأسى بعد موت مريم، لتبلغ أزمته أوجها ويستفحل اليأس والإحباط به في مدينة كئيبة شكلت " بؤرة لاستلاب الإنسان وتغريبه عن إنسانيته ووعيه لذاته " [9]، فلا يجد إلا الهروب انتحارا كمظهر من مظاهر رفض الواقع والتعبير عن متطلبات المثقف ومواطن معاناته ومآسيه.

إن انهيار المدينة وموت مريم يؤرقان السارد ويزيدان من فجيعته فنجده كثيرا ما يربط بين حبيبته مريم وبين الوطن الضائع(المدينة)، من حيث كونها امرأة تمثل المدينة، الثقافة، الحضارة، الحرية والحب فتصبح بمناجاته لها رمزا معادلا للوطن، لمدينة الجزائر " كانت مريم وردة هذه المدينة وحلمها، وتفاحة الأنبياء المسروقة في لحظة غفلة، رعشة المعشوق وهو يكشف فجأة خطوط جسد معشوقته " [10]، مريم "هي المدينة، هي الأشجار، هي البنايات، هي الشوق، هي الهواء البارد والساخن في هذا الفراغ المليء بالتشوهات، هي قطرات المطر البلورية التي كانت تتسرب إلى جسدي، هي بحري المتوحد بين شواطئه المهجورة "[11].لقد بدأت المدينة تضيع يوم اخترقت الرصاصة دماغ مريم التي حاولت التعايش مع الوضع الجديد، مع المحنة الجديدة الساكنة دماغها، وتبقى دوما في صراع مستمر للتشبث بالحياة، مثله مثل الصراع التي تجابهه المدينة مع التغيرات التي استفحلت بها في جميع الأبعاد.

تموت مريم رمز المدينة في النهاية وتموت بذلك المدينة وتتساقط أوراقها كأوراق الخريف ويغادرها الأبطال مجبرين فارين من كل الندوب التي لحقت بها، وكان ذلك عند الكاتب تعبيرا عن رفض الواقع المعيش، واقع المثقف المليء بالضغوطات من كل جانب.

هي ذي المدينة (الوطن) تختزل في مريم في حياتها، في مأساتها وفي صراعها مع الحياة وحتى في موتها.

و في ظل الضغوط الموجودة أصبحت المدينة قيدا للأبطال ما يعلل علاقة التنافر بينهما، الشيء الذي أدى إلى تغذية شعورهم بالغربة في ظل الصراع المشهود، مع خلق حراس النوايا جملة من الضوابط والقوانين في الشوارع والمقاهي وحتى البيوت، فلا مكان للحرية خارج قوانينهم المسننة، وذلك شكل من أشكال النظام المفروض من قبلهم. تقول مريم في سخط ماسحة فمها من البيرة: " إننا في غابة !!من أعطاه الحق ليدخل إلى البار ويغتال فرح الناس، يا أخي دع الناس يختارون حياتهم، يختارون بؤسهم وموتهم "[12].

في هذا المقطع المجتزئ من جدال بين مريم وأحد رجال حراس النوايا داخل مقهى المدينة الذي يبقى فضاء محظورا على المرأة، تمارس فيه مريم كامل حريتها وتغذي شعورها بالنقص تجاه الرجل بل وتشحن بطاقة هائلة وهي تجادله وتوبخه وتعنته، محطمة كل القيود بجرأة كبيرة، ونجحت في إثارة غضبه ودهشته وهي تناقش مواضيع حساسة تعد من المحرمات، وتتكلم بصوت عال عن المجتمع الذكوري، المريض والمهووس بجسد المرأة الذي لا يستطيع مقاومة إغرائه حتى أمام ما يحفظ من آيات قرآنية.أمام المشهد الجريء لم يجد الرجل ما يرد به إلا الانصراف مهددا ومتوعدا.

بدت المدينة في هذه الفترة محرمة على جميع الناس، وقد ولدت الضوابط المقننة التي لا مجال للحرية العفوية فيها شعورا لدى الأبطال بالضيق والموت " حراس النوايا الذين يخافون مع سكان المدينة من القيامة، جاؤوا بكل شيء بكتبهم، وأوامرهم ومحارقهم وحتى لون بارودهم[...] الله يحفظ عندما يتحكم حراس النوايا في المدينة سيحرقون الميت والحي فيها"[13].

لقد فرض الحكام الجدد حظرا على الناس، يتسللون ليلا إلى البيوت الآمنة فيخطفون ويحرقون ويغتصبون، وإن وجدت امرأة مع رجل اعتبروا ذلك خرقا للقانون العام وتحديا للأعراف وإحلالا للفسق، يسألون عن العلاقة بينهما، عن انتماءاتهم الحزبية والدينية، يطلبون الدفتر العائلي، والأوراق الثبوتية، يحاصرونهم من كل جهة، فأصبحت المدينة جراء ذلك

فارغة حزينة، حتى الشواطئ خلت من العشاق الذين يسرقون إنفراد يتهم لأن الحب الذي يعيشه الأبطال ليس الذي تجيزه المدينة في أرجائها، في ظل ذلك لم يبق لمريم والأستاذ إلا البيت الصغير للتمتع بالحرية ولو إلى حين، والتحرر من القيود المفروضة على المارة في الشوارع والشواطئ. حتى فضاء المنزل الوحيد الذي يمارس فيه الفرد حريته بعيدا عن التزامه تجاه الآخرين ورقابتهم لم يعد كذلك، إذ ذهب فيه الأبطال لعرض التغيرات الجديدة وأمور فكرية أخرى، كما أن الألم الملازم لرأس مريم نتيجة الرصاصة منعها من التمتع بالحرية.

لم تعد الشوارع والبيوت وحدها غير آمنة من بطش حراس النوايا، بل أيضا شواطئ المدينة. وباعتبار البحر جزءا من المدينة فقد أقحم في الرواية كشاهد على بؤس الأبطال وانهيار المدينة، وهو امتداد لفضاء لامتناهي، يجد فيه الأبطال المتنفس والخلاص من القيود المفروضة عليهم والضغوط النفسية المتراكمة من الواقع الأليم.

يعنون الكاتب الفصل الثامن بـ (البحر المنسي)، فقد غادره الناس بعد أن ألفهم مجبرين في ظل فجائع المدينة ولاسيما العشاق منها، ذلك لما يثير فيهم من شجون ويؤجج لوعة الهوى فيتحول عندهم إلى رمز أسطوري ولغة للحب لا يفهمها سواهم.

يتوجه الأستاذ ومريم إلى البحر بعد طرد أناطوليا وغلق صالة العرض، إضافة إلى الضغوط المفروضة في الواقع، ذلك أن البحر أفضل، هذا ما قالته مريم للأستاذ، أفضل من البيت، من شوارع المدينة، لأنه يريح حالتها كلما نزلت إليه ولامست أصابع رجليها الماء ولاسيما لحظة نزول المطر، فهذه مريم على شاطئ البحر تغسل وجهها بمائه لتنقيته من الحزن والألم ومن الهموم التي علقت بها في المدينة ليصبح رمزا للطهارة والنقاء بعد أن توحدت دموعها بمائه.

يتأمل البطلان البحر وامتداده المطلق في صمت وخشوع ودهشة أمام الشعور الذي يثيره، لتصبح الكلمات عاجزة عن أي تعبير أمامه، لكن مريم تخاف أن يضيع البحر ويسرق مثلما سرقت الأشياء الجميلة من المدينة؛ لأن حزنها كان أقوى وأفظع:

" – وهل يعقل أن يسرق البحر؟

– البحر كبير قد نمنع من رؤيته، لكن لا أحد يستطيع احتكاره، أو يحرمنا من رؤيته ولو في الحلم.

– لست أدري لكني دائما أشعر بحزن كبير أمام الأشياء المدهشة.."[14]

هو ما بقي للبطلين بعيدا ومنفصلا عن المدينة، يجدان فيه ملاذا للراحة والاستمتاع رغم الحزن الشديد الذي يتملكهما ؛ لكن المدينة أبت إلا مزاحمة البحر والسطو عليه وسرقت جزء منه، هذا ما خافت منه مريم، خافت من أن تسرق المدينة أمن البحر ولحظات الشغف به حينما يلجأ الناس إليه هربا من ضوضاء المدينة وبرودتها وجفافها.

"رأيت البحر يركض هربا من زحف المدينة، والمدينة تمضي ولا تتراجع أبدا، الشوارع من هذا المرتفع تبدو واضحة وطويلة؛ لكن البنيات كلما اقتربت من البحر اشتد تزاحمها"[15]

لقد أخذت المدينة في الاتساع باتجاه البحر وتأبى بناياتها المختلفة التوقف و التراجع، هي مارة في اكتساح البحر مسرعة في لهفة لا يوقفها أحد.

هذا هو الفضاء المكاني المؤطر للأحداث يجتمع كله في المدينة، وباعتبار أجزائها المكانية معظمها مفتوح، شوارع، مقاهي، جسور، شواطئ و مستشفيات، يرتادها عامة الناس فهي " أماكن انتقال لا أماكن إقامة، وفي ذلك دلالة على الضياع والبؤس والتهميش.."[16]، ما يعلل علاقة التنافر والتأزم القائمة بين الأبطال والمدينة منذ البداية.

ولما كانت المدينة تمارس كل هذه الضغوط على الأبطال لم يتوقف الكاتب في الرواية عند حدودها بل يعود بالبطلين إلى الريف، وهو موطنهما الأصلي، وربما هذه العودة هي عودة الروائي إلى قريته، قرية "سيدي بوجنان" وطبيعتها وهي حتمية لترسبات الريف في أعماق الكاتب التي ما ينفك يظهرها دوما، وفي ذلك منطق عشق المكان الأصلي للشخص وانتمائه.

ورغم أن البطلين قضيا الجزء الأكبر من حياتهما في المدينة إلا أن الريف ترك في نفسيهما الأثر البالغ، ولم يظهر هذا الأثر إلا بعد الأزمات التي تعرضا لها في المدينة وبعد انسداد السبل في وجهيهما، فتلك العودة إلى الريف هي عودة للمكان النابض بالحياة والأمن والحب الغائب عن المدينة (مكان الإقامة الحالي) بعد تراجع الفضائل الروحية والإنسانية فيه.

تذكر مريم طفولتها قائلة:"كنا مثل المجنونات الهبيلات، نملأ ورق البرواق بمياه الأمطار الصافية التي تملأ الصخور، ونتسابق لشربها، كل واحد يصرخ : هذه لي، هذه صخرتي، هذه برواقتي، لم نمرض؛ لأن المريض في ذلك الزمن الذي صار بعيدا يعد ميتا، نأكل الحشائش التي نعرف أنواعها من ألوانها ونوارها وشوكها وشكل انحناءاتها، دق المراس،

التافغة، العسلوج، الحميضة، اللوز المر الذي يثير شهوة الأشياء، نتمرغ داخل فضاءات النوار وبنعمان والجرجير الأبيض والأصفر، ونشوي أرانب الخلاء و القنافد التي تزيت جلدها المشوك بسرعة، والجراد والبلالة، والطيور البرية والبحرية والببوش والعصافير وحليب الأشجار والنباتات الصغيرة والكبيرة، كانت أياما طفولية بألوان كثيرة، أمحت بسرعة آخذة معها فرحتنا وبراءتنا وأشياءنا الصغيرة.."[17]

كل لحظة من لحظات الطفولة في الريف لم تمح من ذاكرة مريم.تذكر ذلك وكلها تحسر على الماضي البريء الذي مر بسرعة البرق،في حين بقيت تلك الطبيعة راسخة تحمل نكهة خاصة وهي تلعب بين تلالها ومروجها وتتسابق مع قريناتها لقطف أنواع الأزهار والحشائش لأكلها واللعب بها دون أن يعرف المرض لأجسادهن طريقا،هنا يصبح الريف مصدر صحة الأجساد لتنشأ ثنائية ضدية بين الريف والمدينة الصناعية بؤرة الأمراض والأوبئة الفتاكة بأبطال الرواية (الريف = الحياة) ≠ (المدينة=الموت).

إن الكاتب يقدم الوصف الدقيق للطبيعة ولعب الأطفال من خلال عيني مريم، وذلك الإحساس الملتاع المرافق للوصف الذي يشعر به القارئ لا يتسنى إلا لمن عاش فعلا في الريف وترعرع وشب بين ربوعه وامتلك معرفة دقيقة وعميقة بكل أنواع النباتات وألوانها وأسمائها، فواسيني الذي عاش مدة في الريف وظف بدقة مرحلة من مراحل طفولته واستفاد منها في هذا العمل الروائي.

ورغم إبداء مريم حبها للريف وتعلقها به باعتباره مسرح الطفولة والحياة إلا أن هذا لم يمنع حبها للمدينة التي قتلتها وسرقت أحلام الطفولة البريئة تقول:"طفلة ريفية مغمضة العينين كنت، لست ابنة هذه المدينة ولكنني أحببتها "[18]

لقد فتحت المدينة عيني مريم على الجراح والألم فكانت في كل فصول الرواية تتكلم عنها بصورة سلبية للغاية بلغة التشاؤم والحزن و الألم و كأن المدينة تمارس دوما فعل الإغراء والسحر على البشر،فالكل تتواتر عندهم هذه الصورة السلبية من الخيانة والكذب والدمار والحزن والنفاق والبرودة والزيف،لكن لا يرون الخلاص من أسرها القاتل، يحبون المغامرة فيها مهما كانت صعبة.

غالبا ما تكون مشاعر الحنين إلى الماضي الطفولي هي المسيطرة على الشخص وهو في قمة اليأس والحزن، فلطالما أعادت الدهشة وحالة الهبوط النفسي الأستاذ لأيام الطفولة في

القرية وهو يلعب بعصاه ويركبها كالحصان ويحولها أحيانا إلى عصا للرقص مع نساء القرية.

إن هذا الرجوع بالبطلين هو نابع من عدم الرضا بواقع المدينة المفروض، كما أنه ميل فطري إلى مسقط الرأس.

ونهوضا بفكرة النص، كان الكاتب في بعض الأحيان يطعم روايته بأغاني شعبية لـ " عبد المجيد مسكود "و"الشيخ الغافور" سواء أكانت تنبعث من حانات الشوارع أو من مسجل سيارات الأبطال أو تأتي من قبل التذكر، يلجأ إليها كخدعة فنية لتنمية الأحداث ولسد بعض الثغرات التي يحدثها السرد المتتابع، وقد كانت أغاني عبد المجيد مسكود في ذلك شاهدا وإلى حد بعيد على محنة المدينة، وربما اختاره الكاتب كأحد أبناء العاصمة لينقل الوضع بأكثر دقة و صدق.

تواترت صور المدينة الحزينة عنده كما هي عند الأبطال، تقول مريم مخاطبة أستاذها:

"اسمع، اسمع، مسكود مسكين، المجنون العظيم الذي سرقوا منه مدينته الجميلة

وِينْ نجِي بَابَا سَالِمْ
سنجاقْ، طبولْ،ومْحَارمْ
وغْوَاشِي عليه مْلاَيَمْ
ماذا بِنْانْ ذوكْ السنِينْ
غابت النِية يا فَاهِمْ
رَاحْ ذَاكْ الوقتْ الزينْ

كانت جنازة المدينة مهولة مثل الحريق في مشيتها البطيئة مسكين عبد المجيد مسكود كان يحب مدينته، وذات صباح عندما استيقظ وجد مدينة أخرى، شوارع أخرى، وناسا آخرين فتحولت الغصة التي تجمعت في الحلق إلى كلمات مليئة بالحزن "[19]

كانت أغنية عبد المجيد مسكود "الجزائر يا العاصمة" تصطبغ بالحضور المكثف للتغيرات التي شهدتها المدينة مع استحضار صور جميلة للماضي العاصمي المندثر في صورة المدينة الجديدة.

إن انهيار المدينة يمثل عنده فاجعة عظيمة لذلك جاءت كلها عبارة عن تساؤل وتعجب من التحول المفاجئ والغريب

"من كل جِهَة جَاك المَاشِي

زَحَفْ الريف جَابْ غَاشِي
وين القْفَاطِينْ والمَجْبودْ
عاد طَرَازْ الحريرْ مَفْقودْ
وِينهمْ خَرَازِينْ الجُلُودْ
وِينْهم النَقَاشِينْ؟!
وِينْ صَانِعْ سْرُوج العَوْدْ
وِينْهمْ الرَسَامِينْ؟!
قُولُوا لِي يَا سَامْعِينْ..."[20]

إن مسكود، ما يفتأ يتساءل عن طابع الأصالة والهوية الزائل عن وجه العاصمة لذلك جاءت نظرته إدانة لكل التغيرات والتحولات الجذرية التي شهدتها المدينة على مستوى نماذج صناعات حرفية مذكورة تترجم ذاتها، فكانت برهانا على فقدان المدينة هويتها وتاريخها وضياعها بين الحاضر الممزق والماضي المنسي.

إن هيمنة الخطاب المديني على نفوس الشخصيات هو الهاجس الذي يطبقه الأعرج على أبطاله منذ بداية الرواية إلى نهايتها بخروج الأبطال منها ومغادرتها مرغمين، وكأن مغادرة المدينة إلى الأبد هي الغاية والنتيجة عند الروائي في ظل التغير الحاصل، وبالتالي لا يحتاج كثيرا إلى كل هذه الأدلة على انهيار المدينة إلا إذا كان استخدام الأغنية من باب إثراء النص فنيا وجماليا وإن كانت تسهم في بناء السرد و تدعم فكرة الكاتب.

ترتبط المدينة في جانب آخر بمعاناة المثقف الفردية والجماعية، وهي سبب مأساته وغربته المكانية، بل ومشكله الأكبر باعتبارها سيدة المقام، فهو يعيش "زمنا خاصا هو زمن فقدان المكان، أو زمن فقدان البيت الأليف، زمن الحروب التي تخرب و تهدم" [21] لذلك لم تعد مكانا ينبض بالحياة بل فضاء للإحباط والانكسار، يصدم بواقع مر بعد رجوعه فراح يبحث عن واقع يحتويه من خلال الهروب بأي وسيلة "لأحزم و أمتعتي وأنفاسي وأسافر، ليس مهما، لأخرج بأسرع ما يمكن من فضاء هذه المدينة..ليس مهما"[22]

لقد وجد في واقعه قسوة المدينة وتناقضاتها (كبت للحريات،قتل مريم، غلق صالة العرض، طرد أناطوليا إلى بلدها روسيا...) فسقط في حالة الإحباط النفسي مع فقدان

الإحساس بكل شيء جميل في هذه المدينة، تأكد ألا قيمة لوجوده ولا مهمة له تذكر بعد أن أصبحت الرداءة شعار المدينة، لذلك يجب الخلاص منها كيفما كان.

إن الحالة التي وصل إليها الأستاذ جراء فقدان مريم عمقت الهوة بينه وبين الواقع، وجعلته يعيش حالة من التيه والذهول غير الطبيعي يقول: " تأملت نفسي من جديد، شيء ما يسير بشكل غير طبيعي كه...كه..بربك أنت أستاذ جامعي؟ وكاتب وعاشق للفن الكلاسيكي؟ يا رجل يكفي من النكت، أنت لا شيء في هذا الفضاء المؤكسد، حراس النوايا كانوا محقين عندما قالوا لك يكفي من الفستي(الكذب) أستاذ الزفت، لا شيء فيك يثبت هويتك التي لم يسأل عنها حراس النوايا، ما معنى الهوية في وطن ليس لك؟ يا رجل مزق ربها وريح"[23]

لقد تغير موقف المثقف في هذا البلد وربما لم يكن له موقع على الإطلاق،هذا ما أدركه الأستاذ الذي حاول منذ رجوعه إلى أرض الوطن بالشهادة تقديم الأفضل لثقافة بلده، لكن اصطدم بواقع مرير، إهمال ومصادرة لحقوق ثقافية، بدأ يفقد قيمته ودوره الفعال في مدينة أتت على الأخضر واليابس.

إنه ينزل ببطء إلى الهاوية ويتسلم وهو في قمة وعيه بما يفعل " أعرف أن الفنان في هذا البلد عليه أن يموت ليكون، بدل أن يعمق عشقه للحياة، وإذا لم يمت بقتل "[24]

إذن، تنتهي الرواية برفض الفضاء المديني من قبل المثقف، والخلاص إلى أن الفضاء الوحيد الذي يمكن أن يخلصه من حيرته ويعيد إليه سعادته المفقودة هو الانتحار من فوق"جسر تليملي" الذي يقف عند مأساة المثقفين في بلادنا، وكان لاستحضار صورة الشاعرة "صافية كتو" في قوله:" تذكرت صديقتي الشاعرة صافية كتو التي قتلتها المدينة فرمت بنفسها من أعلى قمة في جسر تليملي الذي يربط أسفل المدينة بمرتفعاتها "[25]. تبيين لصورة ومسار المثقفين ونهايتهم الحتمية وإعطاء الوظيفة التي تؤديها الجسور في بلادنا والتي لا تصلح إلا للانتحار، فهي رمز الموت كما قدم في روايات عديدة كجسور قسنطينة في ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي. وحتى في موته لا يريد أن ينتسب لهذه المدينة، يريد قطع الصلة بها نهائيا فكان له أن تخلص من أوراق هويته (بطاقة التعريف الوطنية وجواز السفر) ليكون بلا اسم، بلا هوية، بلا انتماء، بلا وطن، ميتا كما كان حيا، وقبل انتحاره من على الجسر كان انتحاره ثقافيا بأن مزق مخطوط الرواية، يقول:

"حملت الرواية بين يدي ورقتها بصعوبة فصولها تكاد تنتهي أحد عشر فصلا، لم يعد للكتابة معنى في غيابك، بدأت أبعثرها فصلا فصلا حتى يكون وقع الألم محتملا"[26].

ترسم الرواية السارد في كامل ضعفه واستسلامه وفي وطأة المكان عليه، ويبدو أنها انتهت إلى إقرار فكرة انهزام المثقف وانتحاره في مدينة عبرت على المستوى الروائي عن حقيقة أزمة المثقف والضغوط التي تمارس عليه.

قد لا نغالي إذ نقول: إن سيد المقام خطاب انهزامي استسلامي لا يطمح لتغيير الواقع الثقافي وتجاوزه،يحاول الأعرج تبرير انهزامية المثقف وفكرة انتحاره بإعطاء تفسير مقنع لخيبته الذاتية وذلك لتفاقم الهوة العميقة بين المثقف والمجتمع والسلطة في مدينة لا تعي للثقافة معنى.

يتضح من كل ما تقدم أن المدينة في "سيدة المقام" ما كانت إلا مرتكزا للأحداث النفسية والذكريات، وهي فضاء فني مهمته تجسيد رؤى الكاتب والشخصيات ومن خلالها أراد الكاتب إدانة وتعرية كل الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية عن طريق السارد (الأستاذ) باعتباره أقرب صوت له، والذي لم يكن له من قوة الصمود والوعي ما يؤهله للتعايش معها و فيها كيفما كانت.

الهوامش:

1- واسيني الأعرج: سيدة المقام، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2001، ص05.

2- الرواية، ص05.

3- الرواية، ص35.

4- الرواية، ص20.

5- ينظر: حميد احمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 2000، ص67.

6- الرواية، ص23.

7- الرواية، ص20.

8- الرواية، ص44.

9- عبد الصمد زايد:المكان في الرواية العربية، الصور والدلالة، دار محمد علي للنشر، تونس، ط2003، 1، ص116، نقلا عن عبد الفتاح إبراهيم، البنية والدلالة، ص182.

10- الرواية، ص05.

11- الرواية، ص32.

12- الرواية، ص31.

13- الرواية، ص36.

14- الرواية، ص200.

15- الرواية، ص268.

16- بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، ط1، 1999، ص156.

17- الرواية، ص135.

18- الرواية، ص93.

19- الرواية، ص193.

20- الرواية، ص204.

10-الرواية، ص270.

21- يمنى العيد: فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، ط1، 1998، ص112.

22- الرواية، ص270.

23- الرواية، ص273.

24- الرواية، ص198.

25- الرواية، ص259.

26- الرواية، ص278-279.